المدينة في الحضارة الإسلامية: مدخل لدراسة الفكر العمراني

دكتور/ زيني بن طلال بن حامد الحازمي

الأستاذ المساعد بقسم العلوم الاجتماعية – كلية التربية

جامعة الملك عبد العزيز – جدة

المقـــدمـــة:

تعددت النظريات الحديثة التي حاولت تفسير كيفية نشأة المـــدن ومـــن ثم المعايير التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الأخرى، ويكشف البحث أن نشأة المدينة الإسلامية وتطورها ارتبطا بمعايير حضارية إسلامية تأثرت إلى حد كبير بتاريخ الإسلام وتطور حضارته. تبدأ نشأة المدينة الإسلامية من يثرب بعـــد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها والتي حولتها إلى مدينة بمفهوم حضاري واضح.

فأدى ذلك تدريجاً إلى تكامل المراكز الحضارية الإسلامية. وأثمرت السياسة التي اتبعها الرسول عليه السلام القائمة على تذويب العصبيات القبلية ودعوته إلى نشر روح التآخي عن تحقيق أهدافها في إيجاد مجتمع إسلامي مترابط بعيـــد مـــن النزعة القبلية المتعصبة ومتجه نحو تطبيق تعاليم الدين الإسلامي ولا أدل على ذلك مما نراه في مدن الأنصار التي انصهرت فيها القبائل المهاجرة من الجزيرة العربيـــة فافتخرت بأبناء مدنها وعلمائهم وأدبائهم بعد ذلك.

ومع استمرار الفتوحات الإسلامية ودعم هذه المدن بالجيوش حدث النمـــو الطبيعي في مدن الأنصار وتمشياً مع توزيع القادمين إلى هذه المدن زادت الحاجـــة إلى المنشآت التي تتسع لهذه الزيادات السكانية المتتابعة فشغلت المساحات الفضاء جميعاً وتلاصقت الخطط وحدث تحول أدى إلى انصهار المجموعات السكنية كمـــا ظهر تحول إلى النواحي الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، فقد أخذت المبـــادىء والقيم الإسلامية تتغلغل بالتدريج . وكان لسياسة الحكام الراميـــة إلى العمـــران أثرها الواضح في تطور المدن وازدياد عمرانها وتبلور كثير من النظم الإسلامية التي أدت بدورها إلى زيادة عمران المدن الإسلامية وأثرت تأثيراً واضحاً في تشـــكيل حياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

وتأتي هذه الدراسة كمدخل لدراسة المبادئ العامة لفكر العمران في الحضارة الإسلامية ، من المصطلح والرؤى ، وكيف كان المدونون اللغويون والبلدانيون يواكبون المد الحضاري المادي للإسلام والمتمثل في تمصير الأمصار وتحديث القائم من المدن المفتوحة وفق فلسفة العمران في الإسلام .

المبحث الأول: مصطلح المدينة بين اللغويين والجغرافيين

يجدر بنا عند البحث في هذا الأمر ، أن نتعرف على موقف أهل اللغة والبلدانيين من هذا المصطلح ، والكيفية التي كانوا من خلالها يقسمون المدينة ، والمعايير التي اتخذوها لهذا الأمر ، والتباين فيما بينهم ، إن وجد ، حول هذا المصطلح .

الجانب اللغوي:

قال ابن منظور: ((مدن : مَدَن بالمكان : أقام به ، ... ومنه المدينة وهي فَعيلة، وتُجمع على مدائن ، ومُدْن ومُدُن... وفلان مَدَّن المدائن تمديناً ؛ كما يقال: مصَّر الأمصار . والمدينة : الحصن يُبنى في أُصْطُمَّةِ الأرض . وكل أرض يُبنى بها حصن في أُصْطمتها فهي مدينة ، والنسبة إليها مَديني . قيل : والنسبة إلى مدينة الرسول ﷺ (مدني) ، وإلى مدينة المنصور[1] (مديني) ، وإلى مدائن كسرى (مدائني) ؛ للفرق في النسب لئلا يختلط)) [2].

وكذا قال الرازي[3] كما جاء عند ابن منظور .

وعند الفيروز آبادي: ((مَدَن : أقام . ومنه : المدينة ، للحصن يُبنى في أُحْطمَّةِ الأرض . ومدَّن المدائن تمديناً مصَّرها)) [4].

وجاء في المعجم الوسيط: ((مَدَنَ فلان : أتى بالمدينة . والمدينة : المِصْر الجامع. وأيضاً اسم يثرب مدينة الرسول ﷺ غلبت عليها)) [5] .

وهناك مصطلحات ترد في كتب البلدانيين كثيراً عند حديثهم عن الأقطـــار الإسلامية تناولتها معاجم اللغة بالشرح والتوضيح ، وهي تتعلق بتقسيمات إدارية للإقاليم التي تتكون منها ديار الإسلام . ومن هذه المصطلحات :

- المِصْر :

–عند ابن منظور : ((الحاجز والحدُّ بين الشيئين . وقال ابن سيدة: وقيل هو الحدُّ بين الأرضين ، والجمع مصور . ويقال : اشترى الدار بمصورها أي بحدودها. والمِصْر: الحد في كل شيء . وقيال : المِصْر : واحد الأمصار . والمِصْر: الكورة ، والجمع أمصار . وفلان مصَّر الأمصار ، كما يقال : مدَّن المدن .

قال الليث : المِصْر في كلام العرب : كل كَوْرَة تقام فيها الحدود ، ويقسَّم فيها الفيء والصدقات من غير مؤامرة للخليفة . وكان عمر (رضي الله عنه) مصَّر الأمصار ، منها : البصرة .

قال ابن الأعرابي : قيل لها ، أي البصرة والكوفة ، المِصْران ، لأن عمر (رضي الله عنه) قال : لا تجعلوا البحر فيما بيني وبينكم ، مَصِّروها ، أي صيروها مصراً بين البحر وبيني ، أي حداً . والمِصْر : الحاجز بين الشيئين . والمِصْر : البلد)) [٦].

وعرَّف الرازي المِصْر بقوله : ((وفلان مَصَّر الأمصار تمصيراً ، كما يقال : مَدَّن المُدن)) [٧] .

وعند الفيروز آبادي : ((المِصْر : الحاجز بين الشيئين . والحد بين الأرضين))[٨] .

- البَلَد:

–جاء في المعجم الوسيط: ((البَلَد : المكان المحدود يستوطنه جماعات، ويسمى المكان الواسع من الأرض بلداً)) [٩].

• الكَوْرَة :

–قال الفيروز آبادي : ((الكَوْرَة : الصُّقْع والبقعة التي يجتمع فيها قُرى ومحال . جمعها كُوَر)) [١٠].

–وعند الرازي: ((الكُّورة : بوزن الصُّوَرة : المدينة والصُّقْع . والجمع كُوَر)) [١١].

• الرُّسْتَاق :

–قال الرازي : ((فارسي مُعرَّب ، ويقال : رسداق أيضاً ، وهو السَّواد. والجمع رساتيق)) [١٢].

–وقال الجواليقي : ((الرُّسْدَاق والرُّستَاق مُعَرَّب . وقال ابن السَّكِّيت: فارسي معرّب : بيوت مجتمعة))[١٣].

الجانب الجغرافي :

يُعرَّف ياقوت "الإقليم" بقوله : ((واحد أقاليم ، وإنما سمي إقليماً لأنه مقلوم من الأرض التي تتاخمه أي مقطوع ، والقلم في أصل اللغة : القطع ، وكلما قطعت شيئاً بعد شيء فقد قَلَمْتَه)) [١٤].

•المِصْر :

يرى المقدسي بأن المِصْر: ((كل بلدٍ حلَّه السلطان الأعظم وجمعت إليه الدواوين وقلّدت منه الأعمال وأضيف إليه مدن الإقليم ، مثل : دمشق ، والقيروان ، وشيراز)) [١٥].

• البَلَد :

-يقول المقدسي ((البَلد : يضمُّ المِــصْر ، القَصَبة ، الرُّستاق ، والكورة ، والناحية)) [16].

- **الكورة :**

-قال ياقوت : ((كل صُقْع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة)) [17].

- **المِخْلاَف :**

قال ياقوت : ((المِخْلاف : أكثر ما يقع في كلام أهل اليمن ، وهو واحد من مخاليف اليمن ، وهي كُورها)) [18].

- **الإستان :**

-قال ياقوت: ((وهو في لغة أهل فارس ، والإستان والكَوْرَة واحد))[19]

- **الرُّسْتَاق :**

قال ياقوت : ((فارسي ، ويقصد به : كل موضع فيه مزارع وقرى ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة، وبغداد ، فهو عند الفرس بمترلة السواد عند أهل بغداد ، وهو أخص من الكورة والإستان)) [20].

أما الرازي فيعرِّفه بقوله : ((فارسي معرَّب ، ويقال : رسداق أيضاً وهو : السواد ، والجمع رساتيق)) [21].

- **الطُسُّوج :**

يقول ياقوت الحموي: ((الطُسُّوج: أخص وأقل من الكَوْرَة والرُّستاق والإستان ، كأنه جزء من أجزاء الكورة . وقد تشمل الكورة على عدة طساسيج وأكثر ماتستعمل هذه اللفظة في سواد العراق. وقد قسموا سواد العراق على (ستين طُسُّوجاً) ، أضيف كل طسوج إلى اسم)) [22].

وللمقدسي عبارة جميلة توضح علاقة هذه المصطلحات بعضها ببعض، حيث يقول : ((إعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك، والقصبات كالحُجَّاب، والمدن كالجند، والقرى كالرَّجالة))[٢٣]. ثم يقول: ((ولابد لكل إقليم من كُور ، ثم لكل كَوْرَة من قصبة ، ثم لكل قصبة من مدن . والمصر قصبة كورته ، وليس كل قصبة مصراً))[٢٤] . ويمكن أن نمثل هذا التقسيم في الرسم التالي :

شكل (١)

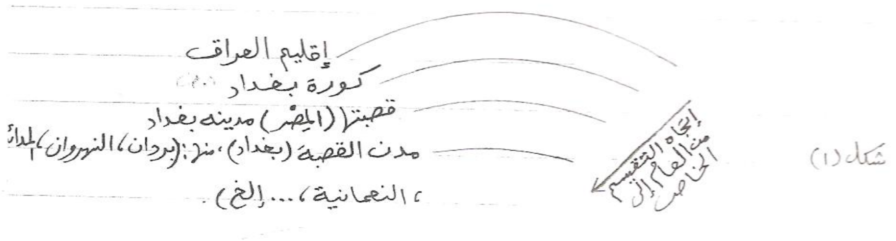

أما التقسيم عند ياقوت الحموي فإنه يأخذ الشكل التالي :

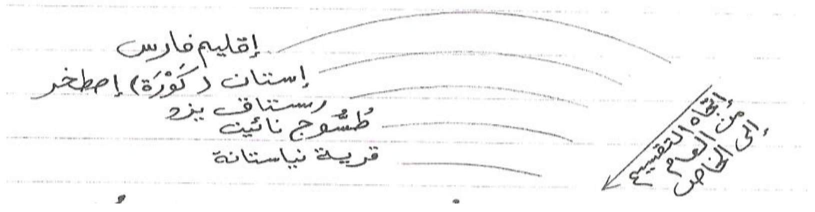

بمعنى : نياستانة قرية من قرى طُسُّوج نائين ، ونائين (وقرى معها) طُسُّوج من طساسيج رُسْتاق يَزْد ، ويَزْد رُسْتاق من رساتيق إصطخر ، واصطخر إستان (كَوْرَة) من أساتين (كُوَر) إقليم فارس .

من خلال العرض السابق للنصوص الواردة في معاجم اللغويين وكتب البلدانيين نجد أن هناك تباين واضح بينها ، بل ونجد الاختلاف بين الجغرافيين أنفسهم في تحديد مفهوم المصطلح بشكل واضح . ويبدو أن منشأ هذا الخلاف بين البلدانيين أنفسهم يعود إلى اختلاف منهجية الكاتب النابعة من رؤية خاصة تتضح حتى في رسمه لعنوان مؤلفه ، فما يرد عند ابن خرداذبه ، الموظف في الدولة ، يختلف عما يرد في كتاب ((عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة)) لسُهْراب أو ((نزهة المشتاق)) للشريف الإدريسي أو حتى ((صورة الأرض)) لابن حوقل ، وأهداف ياقوت الحموي في معجم بلدانه تختلف عن دوافع المقدسي عندما حرَّر مصنفه ((أحسن التقاسيم)) .

ويكفي أن نلقي نظرة على هذا الاختلاف عند اليعقوبي[٢٥] ، وابن خرداذبه[٢٦] وابن الفقيه[٢٧] . وهؤلاء كانوا ، تقريباً ، معاصرين لبعضهم البعض، واتجاهاتهم واحد في الكتابة ، وتخصصهم في اتجاه معين من الكتابات الجغرافية ، وهو مسالك البلدان وممالكها . وعلى الرغم من ذلك فقد تغيرت المقاصد من تلك المصطلحات عند كل واحد منهم .

إن هناك مجموعة من العوامل قد تؤدي إلى مثل هذا الاختلاف ، منها :

١ الطابع العام لحياة المجتمع ، سياسياً وفكرياً (ثقافياً) واقتصادياً .

٢ التكوين الثقافي للجغرافي ونشأته .

٣ نوعية المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في إيراد معلوماته .

وعلى كل حال ؛ فإن ما يهمنا هنا هو التعرّف على معنى ((المدينة)) ، وأبعاد هذا المصطلح عند علماء اللغة والبلدانيين . ولابد من الإشارة ، قبل ذلك، إلى صعوبة التقرير حول أسبقية ايّ من الفريقين حول تحديد مدلول مصطلح ((المدينة)) ، واعتماد أحدهما على الآخر في تحديد المقصود منه .

غير أن البعد الحضاري لمصطلح المدينة هو الذي يهمنا في هذا المقام ، وهذا نجده بصورة واضحة عند التتبع التاريخي لكتابات الجغرافيين المسلمين حول مدن العالم الإسلامي، وأيضاً عندما نرى التقسيم الإداري للإقليم كما هو عند المقدسي شكل (١) وياقوت شكل (٢) . ففي هذا التقسيم يظهر لنا البعد الحضاري التاريخي للمدينة من خلال نشأها كقرية صغيرة إلى أن تصبح طُسُّوجاً ثم رستاقاً أو قصبة ثم إستاناً أو كورة تمثل مع غيرها من الأساتين أو الكور إقليماً من الأقاليم . ومن وجهة نظر خاصة ، فإن مصطلح الإقليم مصطلح يخضع لاعتبارات اجتماعية واقتصادية دون النظر إلى تطوره الحضاري العمراني .

ولكننا نجد جميع البلدانيين يركزون عند حديثهم عن المدينة ، بغض النظر عن موقع هذه المدينة ومحلها من التقسيمات الإدارية ، فالمدينة عندهم تعد ثمرة لتطور تاريخي لها من الناحية الحضارية أكسبها هذا المصطلح . ولعل أبرز من عبَّر عن هذا الأمر المقدسي عندما عرّف (البَلَد) ، وأكسبها إبن الأعرابي مدلولها اللغوي عندما قال : ((... والمِصْر : البَلَد)) ، أي أن المِصْر يصبح بلداً إذا أخضعنا هذا الأمر لمدلول (المِصْر) اللغوي كما جاء عند ابن منظور ، وبالتالي فإن (المِصْر) و (المدينة) بمعنى واحد ، أكسبها مصطلح (البَلَد) بعداً حضارياً متنوعاً جاء على لسان المقدسي أيضاً عندما عرَف (المِصْر) .

وحتى التقسيمات الإدارية التي ذكرناها من قبل لم تكن ثابتة عند الرحالة المسلمين ، بل نجد أن ثمة عوامل قد أثرت على هذا الالتزام من أهمها التطور الحضاري لحياة المجتمعات الإسلامية في ذلك ، وهذا مانجده ماثلاً في كتابات الشريف الإدريسي[٢٨] ، أحد علماء القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، عندما قسَّم الإقليم الواحد إلى عشرة أقسام ، ذاكراً في كل قسم ما فيه من المدن و الأكوار و العمارات ، وهذا التقسيم لم يكن موجوداً في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين ، أو حتى الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .

ولكن نجد أن (المدينة) عند الإدريسي هي نفسها ، من حيث معاييرها الحضارية ، عند ابن حوقل ، والمقدسي ، وابن خرداذبة ، وسُهْراب ، وأبو الفداء في تقويمه للبلدان .

ومن خلال تصفح كتب الجغرافيين المسلمين وحديثهم عن المدينة الإسلامية، نرى التأكيد بأن هذه المدن لم تنشأ اعتباطاً ؛ بل كان يجري تأسيسها حسب تخطيط مسبق ، سواء من حيث اختيار الموقع أو التقسيم أو البناء أو التحصين [٢٩].

ولعل الموسوي قد عبَّر عن رأي هؤلاء الجغرافيين حول المدينة ، ومعاييرها ومعطياها ؛عندما ذكر بأن ((المدينة : حقيقة مادية مرئية في المظهر (الأرض) من حيث الكثافة السكانية ، والكتلة البنائية ، والبعد التاريخي ، والحيثية الإدارية))[٣٠] . ولعل هذا التعريف الحديث للمدينة ، كما يذكر الموسوي ، يعبر بالتأكيد عن صورة المدينة في مخيلة البلداني أو قريباً من ذلك على الأقل .

المبحث الثاني: عناصر المدينة في كتابات البلدانيين

تُعد المدينة وعناصرها محوراً رئيسياً في كتب الجغرافيين المسلمين ، إذ تشكل هذه العناصر وحدة الموضوع (المدينة) وبالتالي المادة العلمية لهذه الكتب، ولذا نرى – عند قراءة هذه المؤلفات – مدى الدقة التي حرص المؤلفون على توخيها عند الحديث عن المدن في أنحاء المعمورة المعروفة لديهم ، بغض النظر عن الدافع من وراء تأليف هذا المصنف أو ذاك ، فلكل مؤلف نهجه في التأليف والهدف المبتغى من ورائه .

أولاً : الموقع الجغرافي

يمثل الموقع الجغرافي أول عناصر المدينة التي يحرص الجغرافيون على إيرادها في بداية حديثهم عن مدينة ما ؛ وهو أمر منطقي يتوافق مع ماينبغي أن يتعرف عليه القارئ عند قراءته عن المدينة .

فقد كان هذا العامل يتحدد باختيار المواقع الملائمة للغرض الذي من أجله أُسست تلك المدن . وهذا ما نلاحظه في انتقاء مواقع : بغداد ، والبصرة ، وواسط ، على سبيل المثال . فعن بغداد يحدثنا المقدسي عن الخطوات والمعايير التي اتخذها الخليفة المنصور عندما أراد بناء مدينة السلام ، حيث يقول : ((ولما أراد بناء مدينة السلام سأل عن شتائها وصيفها والأمطار والبقّ والهواء ، وأمر رجالاً حتى يناموا فيها فصول السنة حتى عرفوا ذلك ، ثم استشار أهل الرأي من أهلها ، فقالوا : نرى أن تنزل أربع طساسيج في الجانب الشرقي بُوقَ وكَلْوَاذي ، وفي الجانب الغربي قَطْرُّبل وبادُوَرَيَا، فتكون بين نخل وقرب ماء ، فإن أجدب طُسُّوج أو أخرت عمارته كان في الآخر فرج ، وأنت على الصراة تجيئك الميرة في السفن الفراتية ، والقوافل من مصر والشام في البادية ، وتجيئك آلات من الصين في البحر ، ومن الروم والموصل في دجلة ، فأنت بين أنهار لا يصل إليك العدو إلا في سفينة أو على قنطرة على دجلة والفرات)) (٣١)

أما الأصطخري فإنه يبين لنا أهمية العامل الجغرافي عندما أراد المسلمون تمصير مدينة البصرة بقوله : ((وهي خطط وقبائل كلها ، ويحيط بغربيها البادية مقوساً ، وليس فيها مياه إلا أنهار .. فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار الصغيرة .. ولها نهر يعرف بنهر الأُبُلَّة .. وعلى حافتي هذا النهر قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد قد مُدَّت على خيط واحد . وتتشعب هذه الأنهار إلى أنهار كثيرة ، فمنها ما يقارب هذا النهر في الكبر .. وهذه الأنهار كلها مخترقة بعضها إلى بعض ، وكذلك عامة أنهار البصرة . حتى إذا جاء مدُّ البحر تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل نخيلهم وحيطانهم وجميع أنهارهم من غير

تكلف، فإذا جزر الماء انحط حتى تخلو منه البساتين والنخيل ويبقى في الأنهار))[٣٢].

كما نجد أهمية هذا العنصر في تأسيس مدينة واسط ، حيث يذكر المقدسي في هذا الصدد : ((... اختطها الحجَّاج ، وسميت واسط لأنها بين قصبات العراق وبين الأهواز)) [٣٣] .

ومن خلال النصوص السابقة ، نرى مدى الاهتمام الشديد من قبل القادة المسلمين في اختيار مواقع المدن الجديدة ، وذلك تبعاً للوظيفة التي من أجلها أسست تلك المدن .

ففيما يخص مدينة بغداد ، نجد أن العامل السياسي كان الغرض من تأسيسها لكي تكون عاصمة للدولة . وبالتالي كان لابد أن يكون موقع المدينة ، من حيث طبيعة الأرض والتضاريس والمناخ ، ومقومات الحياة ، يتناسب مع أهميتها ، وهو ما يفسر حرص الخليفة المنصور على هذا الأمر بشدة . وقد اعتمد في تقريره بمناسبة موقع مدينة السلام من عدمه على أمرين ، هما :

١- السؤال عن مناخها ، والقيام بالتطبيق العملي للتحقق من هذا الأمر .

٢- استشارة أهل العلم والرأي ، وخاصة من أهل المنطقة لأنهم أدرى بها من غيرهم ، وهذا واضح في تعليلهم لمناسبة المكان وإستراتيجيته من الناحيتين : الاقتصادية والعسكرية (التحصين) .

كما كان موقع البصرة الجغرافي ملائم جداً لوظيفتها العسكرية كقاعدة للمسلمين تخدم حركة الفتح الإسلامي في المشرق ، على الرغم من سوء مناخها كما سنرى فيما بعد .

وتبرز أهمية العامل الجغرافي أيضاً في مدينة واسط ، التي كان تأسيسها إحدى الضرورات الإدارية التي فرضتها الأوضاع في العراق في ذلك الوقت ، وما واجهه الحجاج ، والي العراق من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان ، من الفتن والثورات؛

فأراد بهذا الأمر إحكام السيطرة على مدينتي : البصرة ، والكوفة ، وهذا الأمر واضح في كتاب الحجاج إلى الخليفة عندما فرغ من بناء واسط قائلاً : ((إني اتخذت مدينة في كرش من الأرض بين الجبل والمصريين وسميتها واسطاً)) [٣٤] ؛ فتناسب بذلك الموقع الجغرافي لواسط مع الهدف من تأسيسها .

ثانياً : وظيفة المدينة

أما العنصر الآخر من عناصر المدينة التي حرص البلدانيون على إيراده في مصنفاهم ، فهو وظيفة المدينة أو الغرض من تأسيسها ، أو الدافع إلى تأسيسها . ولقد اختلفت وظائف المدن الإسلامية ، وتشابهت أيضاً ، تبعاً للغرض من تأسيسها . كما تعددت هذه الأغراض بدورها بحسب الظروف المسيطرة على الدولة الإسلامية ، أو الدويلات فيما بعد .

ونجد في كتب الجغرافيين المسلمين الكثير من النصوص التي تتحدث عن أهمية هذا العنصر كأحد العوامل المؤدية إلى تأسيس المدن . ويمكن أن نشير هنا إلى ثلاث مدن، هي : بغداد ، وطرسوس ، وسرَّ من رأى (سامراء)

فقد ذكر ياقوت الحموي بان سبب بناء أبو جعفر المنصور لمدينة بغداد ((أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده فبلغه ذلك من فعلهم ؛ فانتقل عنهم يرتاد موضعاً)) (٣٥) .

أما وظيفة مدينة طَرسَوس فإننا نقرأها عند ابن الفقيه في قوله : ((... فلما كان سنة ١٧١ بلغ الرشيد أن الروم قد ائتمروا بينهم للخروج إلى طرسوس لتحصينها وترتيب المقاتلة بها ، فأغزى الصائفة هرثمة بن أعين ، وأمر بعمارة طرسوس وبنائها وتمصيرها ففعل ؛ فأجرى أمرها على يدي فرج بن سليم الخادم ، فبنى قصبتها ومسجدها ومسح مابين النهر إلى النهر فبلغ ذلك أربعة آلاف خطة، كل خطة عشرون ذراعاً في مثلها ، وأقطع أهل طرسوس الخطط)) (٣٦) .

ويطلعنا القزويني على الدافع من وراء تأسيس مدينة سُرَّ من رأى (سامراء) وبالتالي وظيفتها ، حيث يقول : ((بناها المعتصم سنة إحدى وعشرين ومائتين . وسبب بنائها أن جيوشه كثروا حتى بلغ مماليكه سبعين ألفاً ، فمدَّوا أيديهم على حُرم الناس ، وإذا ركبوا انحطم كثير من الصبيان والعميان والضعفاء من ازدحام الخيل، فاجتمع عامة أهل بغداد ووقفوا للمعتصم ، وقالوا : قد عمنا أذى

جيوشك! إما تمنعهم أو تقلبهم عنّا وإلا حاربناك بدعاء السّحَر! .. فقال : هذه الجيوش لا قدرة لي بها ، نعم أتحول وكرامة . وساق من فوره حتى نزل سامراء وبنى بها داراً وأمر عسكره بمثل ذلك حتى صارت أعظم بلاد الله بناءً وأهلاً))[٣٧].

نجد فيما سبق من النصوص أن وظيفة هذه المدن كانت طارئة ، أي أن وظيفتها نشأت من الدافع من وراء تأسيسها ، وكان دافعاً أملته ظروفاً سياسية، وعسكرية فكان الوضع السياسي الأمني يفرض على الخليفة المنصور ضرورة إيجاد مقراً جديداً تدار منه أمور الدولة بشكل منظم ، وبعيد عن التوتر وكل ما يعكِّر صفو الاستقرار .وكانت المبادرة السريعة من قبل الخليفة هارون الرشيد إلى تمصير طرسوس لكسب الوقت أمام الروم بعد أن علم عن نيتهم في السيطرة على هذا الثغر الخطير، أي أن وظيفة هذه المدينة قد نشأت كرد فعل لوضع طارئ يتطلب من الخليفة سرعة اتخاذ هذه الخطوة .

وقد حتم الوضع الأمني المضطرب الذي أصاب بغداد على الخليفة المعتصم بناء مدينة سُرَّ من رأى لإعادة الاستقرار لعاصمة دولته ، أي أن نشأة وظيفة هذه المدينة مشابه إلى وضع مدينتي : بغداد ، وطرسوس من حيث الظروف الطارئة التي حتمت بناء هذه المدن ؛ فكانت وظيفة كلاً من : بغداد وسُرَّ من رأى وظيفة سياسية ، في حين كان الجانب العسكري يمثل وظيفة مدينة طرسوس .

وكانت مصادر المياه تمثل عنصراً حيوياً ومهماً جداً في تكوين المدينة ، إذ غالباً ماتقام المدن بالقرب من مصادر المياه وهو أمر لا يحتاج إلى مزيد بيان، ولقد وجد الكثير من المدن الإسلامية التي كانت تعتمد في مصادر مياهها على مصادر طبيعية، وأخرى صناعية تقوم بها الدولة من خلال شق القنوات، وبناء القناطر، وغير ذلك من الوسائل التي تضمن استمرار تدفق هذا العنصر الحيوي على المدينة.

وهناك العديد من المدن الإسلامية التي اشتهرت بكثرة مصادر مياهها ووفرتها، سواء الطبيعية منها أو ما أقامه سكانها من السدود وقنوات الرَّيْ بشكل

يدلل على الرقي الحضاري الخاص بهندسة الري في الحضارة الإسلامية، ولعل من أبرز هذه المدن مدينة صنعاء، إذ يقدم لنا ابن رسته بعضاً من هندسة الرَّيْ في صنعاء قائلاً: ((ولإمطارها أوقات معلومة عندهم .. ويمطرون في شهور الصيف شهراً واحداً، ومن الخريف تمام أربعة أشهر .. ويجري ذلك الماء إلى مزارعهم في مجارٍ قد اتخذوها لهذا الأمر لا يتعطل معه شيء من هذه المياه.. ولمدينتهم شارع يشقها بنصفين وينفد إلى وادٍ تجري فيه السيول أيام المطر في عرض دجلة أو أقل منها))(٣٨) .

ونظراً لحسن مناخها وطبيعة تضاريسها ، فقد كانت قرطبة وفيرة المياه ، فيها ((عيون وآبار ، وعندهم ثلج يقع على جبل يقال له "شُلّيْر" ، ... وبقرطبة آبار طية عذبة باردة يشربون في الصيف من تلك الآبار لشدة بردها)) (٣٩)

كما اشتهرت مدينة البصرة بكثرة أنهارها ، فكانت أكثر مصادر مياه أهلها ((ماء دجلة ، والفرات ، والزَّاب ، والنهروانات ، ومنها سقي مزارعهم ، والماء بالبصرة ضيق ، لأنه يحمل في السفن من الأُبلة . وأما الماء الملاصق لها فغير حلو ولا طيب)) (٣٩) .

ثالثاً: المناخ

وتأتي أهمية هذا العنصر كونه يشكل أمراً مهماً ينبني عليه اختيار موقع المدينة في كثير من الأحيان . غير أن هذا العنصر قد يتجاوزه القادة المسلمون ، في بعض الأحيان ، إذا كان الموقع ملائماً لوظيفة المدينة ، كالبصرة على سبيل المثال ، فمناخها السيئ لم يمنع عتبة بن غزوان من استحسان موقعها .

ولقد حرص الجغرافيون والبلدانيون على تخصيص جزء من حديثهم عن المدينة الإسلامية ؛ الحديث عن مناخ تلك المدينة ، ويمكن أن نستعرض ماقاله ثلاثة من الجغرافيين عن مدن : صنعاء ، والموصل ، وغزنة .

فعن مدينة صنعاء يقول ابن رسته : ((وهي مدينة جبلية برية ، معتدلة الهواء ، يعدل طيب هوائها في جميع السنة هواء ربيعياً في السنة إذا اعتدلت وطابت .. وأكثر سطوحها مفروشة بالحصى لكثرة أمطارها ، ولأمطارها أوقات معلومة عندهم علامات لذلك لا يخطئون . ويمطرون في شهور الصيف شهراً واحداً ، ومن الخريف تمام أربعة أشهر ثم تنقطع الأمطار عندهم فلا يمطرون أصلاً إلى مثل ذلك الوقت من العام الآخر)) (٤٠) .

في حين يحدثنا الأصطخري بشكل موجز عن مناخ مدينة الموصل بقوله : ((وأما الموصل ، فهي مدينة على غربي دجلة ، صحيحة التربة والهواء)) (٤١) .

أما مناخ مدينة غزنة ، فإن هذه المدينة ((مخصوصة بصحة الهواء ، وعذوبة الماء، وجودة التربة وهي جبلية شمالية بها خيرات واسعة ، إلا أن البرد بها شديد جداً)) (٤٢) .

ومن خلال ماسبق من النصوص الخاصة بالمناخ ، نلاحظ حرص البلدانيين على ربط مناخ المدينة بطبيعة تضاريسها لما لذلك من أهمية في بيان طبيعة المناخ في هذه المدينة ، فهم يذكرون مثلاً بأنها جبلية أو أنها على ضفاف نهر ، وذلك لكي يستقيم حديثهم عن المناخ مع تضاريس المدينة .

كما ينقل لنا بعض البلدانيين صورة جميلة عن العلاقة بين سلوك المجتمع وطرائق معيشته وبين تكيُّفه مع مناخ مدينتهم ، وهذا ما أشار إليه ابن رسته عندما ذكر أن أكثر سطوح منازل أهل صنعاء مفروشة بالحصى بسبب كثرة أمطارها . وفي هذا الأمر تبرز صورة أخرى من الأنماط الحضارية الموجودة في صنعاء في ذلك الوقت .

الاستحكامات :

وتعد الاستحكامات أحد عناصر المدينة التي نجد لها في المصادر الجغرافية نصوصاً عدة ، حيث حرص الجغرافيون على بيان حال المدن التي لها استحكامات

سواء طبيعية كانت أو غير طبيعية ، كبناء الأسوار والأبراج وحفر الخنادق ، وغير ذلك ، لما لهذا الأمر من أهمية في إبراز عنصراً مهماً من عناصر المدينة ، والتي تدل على التقدم المعماري في الحضارة الإسلامية فيما يتعلق بالتحصينات التي أقامها المسلمون . ونأخذ لهذا العنصر ثلاثة نصوص ، تتعلق باستحكامات مدن : بخارى، وسمرقند ، وبغداد .

فعن مدينة بخارى يقول ياقوت : ((فهي مدينة على أرض مستوية ، وبناؤها خشب مشبَّك ، ويحيط بهذا البناء من القصور، والبساتين ، والمحال ، والسكك المفترشة ، والقرى المتصلة ؛ سور يكون اثني عشر فرسخاً في مثلها .. ومن دون هذا السور .. سور آخر نحو فرسخ في مثله . ولها مدينة داخل هذا السور يحيط بها سور حصين)) (٤٣) .

أما استحكامات مدينة سمرقند ؛ فنجد لها خبراً عند المقدسي في قوله ((قصبة الصغد ومصر الإقليم .. بناء قوي سنيٌّ وثيق)) (٤٤).

كما يبرز ابن رستة صفة تحصين بغداد بقوله : ((.... وهي مدينة حصينة لها سوران ، وبين السورين فصيل ، وخارج السور خندق قد بني حافتاه بالحصى والآجر . ولهذه المدينة أربعة أبواب .. وعلى السور الخارج منها أربعة أبواب حديد ؛ فمن دخل الباب الأول يفضي إلى فصيل ، كما يدور حول المدينة ، ثم يصير إلى باب حديد آخر وعليه القبة)) (٤٥) .

ونجد في هذه النصوص صوراً لهذه الاستحكامات تختلف عن بعضها البعض بسبب اختلاف تضاريس المدينة بشكل خاص ، على أن مدينة بغداد تعد نموذجاً رائعاً للتحصينات في العمارة الحربية في الحضارة الإسلامية ، حيث يجمع هذا الأسلوب في البناء بين قوة الاستحكام والتنظيم الإداري لدواوين الدولة ، وبين التوزيع المنظم للعنصر البشري داخل المدينة ، الأمر الذي يتحقق معه الأمن الداخلي قبل مواجهة الخطر الخارجي .

رابعاً : الإحصاء البشري

ولقد اهتم الجغرافيون المسلمون بإبراز عنصر الإحصاء البشري للمدن الإسلامية في مصنفاتهم بصورة غير مباشرة ، إذ لا نجد أياً من الجغرافيين والبلدانيين من يذكر عدد السكان في مدينة ما ، ولكن نجد قوائم خاصة بأعداد الجند ، أو عدد المصلين في جوامع المدينة يوم الجمعة ، أو عدد الصنَّاع والحرفيين، أو عدد الحمامات ، أو عدد المنازل والبيوت ، ... الخ ، والتي يمكن من خلالها وضع تصور مبدئي ومتوقع لعدد السكان في هذه المدينة أو تلك .

ومن الأمثلة على هذه النصوص ، ما ذكره شيخ الربوة عن أعداد المصلين في جوامع مدينة القاهرة العشرة يوم الجمعة قائلاً : ((... وانتهى الحال في اتصال عمارتها إلى أن صار في ضواحيها عشرة جوامع يصلون فيها الخطبة (٤٦) ، فيهم إلى ما بين ألف ألف وإلى ما فوقها ، وذلك لكثرة من ضوى إليها من أهل الأمصار)) (٤٦) .

ونجد عند اليعقوبي نصوصاً متفرقة عن بعض الجوانب في مدينة بغداد التي تعطي تصوراً مبدئياً عن الكثافة السكانية في الجانب الغربي للمدينة كقوله : ((... وأُحصيت المساجد فكانت ثلاثين ألف مسجد .. وأُحصيت الحمامات فكانت عشرة آلاف حمام)) (٤٧)

كما يروي ياقوت قولاً لعبد الملك بن صالح عندما قدم بغداد فرأى كثرة الناس بها ، فقال : ((ما مررت بطريق من طُرق هذه المدينة إلا ظننت أن الناس قد نودي فيهم)) (٤٨) .

خامساً: طبائع السكان

كما كانت طبائع السكان عنصراً من عناصر المدينة التي حظيت برعاية الكتَّاب الجغرافيين وإثباتها في مصنفاته ، فنجد العديد من النصوص التي تتحدث

عن أخلاق سكان المدينة ، وتعاملهم مع الغرباء ، والغالب على تصرفاتهم اليومية، والسمات المشتركة بين سكان المدينة ، وغير ذلك من الأمور الخاصة بهذا العنصر. ونورد هنا نصاً ظريفاً جمع فيه ابن الفقيه طبائع سكان العديد من الأقاليم والمدن الإسلامية وغير الإسلامية في ذلك الوقت وإلا فالأمثلة كثيرة في هذا الشأن ، يقول ابن الفقيه : ((... وأهل مصر أهل غفلة وقلة فطنة . والبربر الفطنة فيهم فاشية ، وليس فيهم كبر ولا لهم مكر . والروم أهل صلف وتكلف . وأهل الشام أهل غفلة وسلامة . وأهل الحجاز أهل معازف ولهو ومداعبة وتأنيث . وأهل العراق أهل فطنة وغدر . وأهل الهند أهل غفلة وشجاعة ولين . وأهل الصين أهل طلب وخفة وجبن وحذق بالصناعات . وأهل اليمن أهل غفلة وخفة ولين . وأهل خراسان أهل غفلة وبخل وحرص وشجاعة)) (٤٩) .إن ما ذكره ابن الفقيه ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً ، ولكن مصادر ابن الفقيه وخبرته جعلته يطلق مثل هذه الأحكام ، وهي مرتبطة كما هو واضح بالتركيبة النفسية لشعوب تلك الأقاليم والبلدان .

سادساً : الوضع الديني والثقافي

أما الوضع الديني والثقافي فقد كان من أهم عناصر المدينة التي أبرزها الجغرافيون المسلمون في مصنفاتهم ، وهو عنصر ذو علاقة مباشرة بعنصر طبائع السكان ، ولذا كانت كتب الجغرافيين والبلدانيين من المصادر المهمة عند البحث عن الوضع الديني أو الثقافي أو الاجتماعي لأي مدينة من المدن الإسلامية وأقاليمها . وهناك الكثير من النصوص التي تتحدث عن هذا الأمر ، لم تخلو منها أيًا من مصنفات الجغرافيين المسلمين .

فعن الوضع الثقافي لمدينة بخارى يحدثنا القزويني عن هذا الجانب قائلاً : ((ولم تزل بخارى مجمع الفقهاء ومعدن الفضلاء ، ومنشأ علوم النظر .. ولم ترَ مدينة كان أهلها أشد احتراماً لأهل العلم من بخارى)) (٥٠) .

ومن جانب آخر ، يشير الإصطخري إلى الوضع الديني في نصيبن عندما قال: ((... وبها دَير عظيمة ، وحواليها ديارات ، وصوامع للنصارى كثيرة))[٥١].

ولو أردنا أن نتتبع النصوص الواردة في ذلك لطال بنا المقام ويمكن الرجوع إلى تلك المصادر للتعرف على صوراً شتى عن الوضع الاجتماعي والديني والثقافي للمدن الإسلامية .

سابعاً : الحالة الاقتصادية

ولقد وجه الجغرافيون عنايتهم في مؤلفاتهم إلى الحديث عن الحالة الاقتصادية للمدن والأقاليم الإسلامية كأحد أهم العناصر الحيوية لازدهار وتقدم أي حضارة، وهناك نصوصاً كثيرة جداً في مصنفات الجغرافيين ، بل وصنفت العديد من الكتب عن الناحية الاقتصادية ، أو بعضاً من محاورها على يد علماء المسلمين[٥٢]. ولكن ما يهمنا هو ما ورد في المصنفات الجغرافية عن الأمور الخاصة بالاقتصاد في الأمصار الإسلامية ، سواء ما يتعلق بالحركة التجارية أو توفر السلع الغذائية وغير الغذائية وأسعارها ، والقوة الشرائية وغير ذلك من الأمور .

فعلى سبيل المثال ، نجد اليعقوبي يصف لنا الحركة التجارية المزدهرة في بغداد في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي بقوله : ((... فاجتمع بها ماليس في مدينة في الدنيا ، ثم يجري في حافتيها النهران الأعظمان : دجلة والفرات ، فيأتيها التجارات والمِيَر براً وبحراً بأيسر السعي حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغير أرض الإسلام ، فإنه يحمل إليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلدان حتى يكون بها من تجارات البلدان أكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها))[٥٣].

كما يصف لنا المقدسي السلع التجارية في مدينة القيروان وأسعارها وأصنافها وذلك في قوله : ((مصر الإقليم ، بهي عظيم ، حسن الأخباز ، جيد

اللحوم ، قد جمع أضداد الفواكه ، .. مع علم كثير ورخص عجيب ، اللحم خمسة إمناءٍ بدرهم، والتين عشرة ، ولا تسأل عن الزبيب والتمر والأعناب والزيت . وهي فرضة المَغْرِبَين ومتجر البحرين)) [٥٤].

وعلى كل حال فإن هناك العديد من العناصر الخاصة بالمدينة الإسلامية التي كانت أحد محاور مؤلفات الجغرافيين والبلدانيين المسلمين ، بعضها يندرج بصورة أو بأخرى تحت العناصر السابقة ، غير أن ماذكر يُعطي صورة حسنة على مدى الرقي الحضاري الذي كانت عليه المدينة الإسلامية بعنصريها : المادي ، والبشري، وما تعدد هذه العناصر إلا مصداقاً لذلك .

المبحث الثالث: الفكر العمراني الإسلامي

يقول الحق تبارك وتعالى : { وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون} [٥٥]، ومقتضى هذا الأمر تحقيق العبودية لله تعالى في حياة الإنسان على مستوى الفرد والجماعة والإنسانية ، والإنسان في جزء آخر من وجوده يتصرف باختيار منه ، فهو يسعى في الحياة ويقوم بمهامه المتنوعة في الأسرة والمجتمع . فإذا تصرف باختياره وفق شريعة الله فهو عابد له ، والعبادة تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال والأحوال .ووفق هذه القاعدة ، أسهمت الحضارة الإسلامية في الرقي الإنساني ، وكان الجانب المعماري من فضائلها .

وتدور في أذهان كثير من الباحثين تساؤلات تتمحور حول وجود فكر حر وجديد في العمارة الإسلامية ، بمعنى هل مانتج عن الحضارة الإسلامية في الجانب المعماري خلال مراحلها التاريخية يرتقي إلى أن يطلق عليه "فكر" ، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون اجتهادات فردية أو جماعية فيما نراه من صورة المدينة الإسلامية بكل ما تحويه .

إن استقراء كتب التراث يكشف لنا بجلاء عن وجود فكر عمراني إسلامي واضح وشامل، ذو شخصية مستقلة ؛ يهتم حتى بالجزيئات الصغيرة في العمارة .

ومنشأ ذلك أن تطور العمارة إذا كان يرتبط بظروف المجتمع وبدرجة التطور المادي وبتراكم الخبرات فإنها ترتبط في إطار أوسع بالحضارة السائدة، فهي ترتبط بالقيم العامة السائدة لهذه الحضارة وفلسفتها وأولوياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وهذا ما أراده ابن خلدون عندما قال: ((... والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران ، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل))[٥٦]. فهو يصور العلاقة الوثيقة بين العمران وحضارة الأمة في جانبها المادي .

ومن خلال استقراء كتب التراث نستطيع أن نرى بوضوح النصوص المتعلقة بنشأة المدينة الإسلامية ، واختيار موقعها ، وتخطيطها ، مما يؤكد على وجود فكر إسلامي خاص بالعمارة فالتفصيلات الدقيقة التي امتاز بها الفكر المعماري الإسلامي فيما يخص كافة الجوانب التي كونت هذا الفكر ؛ نجدها مبثوثة في ثنايا كتب الحديث ، والفقه ، والسياسة الشرعية ، والحسبة ، والتاريخ ، والبلدانيات، والمسالك والممالك، والآداب، وغيرها. ولذا ؛ فإن تكوين هذا الفكر قد رُفد من عدة مصادر متنوعة في موضوعاتها وطرحها ، بالإضافة إلى الكتب التي ظهرت في فترات مختلفة من التاريخ الإسلامي تتحدث عن بعض العناصر المعمارية.

وبوجهٍ عام ، فقد بلورت "مصادر التراث الإسلامي في عصوره المتعاقبة ما انتهى إليه الفكر الإسلامي في مجال تخطيط المدن ، وتعكس المصادر العديدة التي كتبت عن تاريخ المدن وخططها كثيراً من الحقائق التي توضح إلى حد كبير التطور الفكري المتعلق بتخطيط وإنشاء المدن الإسلامية"[٥٧]

نشأة المدينة :

إن الرؤية الفكرية الإسلامية لنشأة المدينة تنبع من خلال إطار فكري يتشكل عن طريق مجموعة من الأسباب والمعايير التي تحكم هذه النشأة . ففي التعريف اللغوي للمدينة ، فإن هناك صورة واضحة تحدد كيان المدينة ، المادي

والاجتماعي . فالناحية المادية نجدها في تعريف ابن منظور للمدينة بأنها : ((هي الحصن يُبنى في أصطمة الأرض ، وكل أرض يبنى عليها حصن في أصطمتها فهي مدينة))(٥٨) . أما الناحية الاجتماعية فإننا نجد لها عند الفيروز آبادي تعبيراً جميلاً عندما قرر بأن ((المدينة تعادل الأمة))(٥٩) أي أن المدن ووجودها وتطورها ، يرتبط بصورة وثيقة ((بالهيئة الاجتماعية)) كما سماها القزويني ، ويقصد بذلك : الناس ، أو الجماعة عندما عرّف المدينة(٦٠) .

وفي الحديث الشريف نجد اشتراط إقامة الصلوات الجامعة بأن لا تكون إلا في مصر جامع ، فقد جاء عن الرسول ﷺ قوله : ((لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع))(٦١) وبالتأكيد فإن المدينة بما فيها من بشر وعمران تمثل ذلك المِصر .

كما عُدت المدن في نشأتها أحد أركان الملك التي حرص خلفاء المسلمين على تطبيقها ، ألا ترى قول المتوكل بعد بنائه المتوكلية : ((الآن علمت أني ملك ، إذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها))(٦٢) . فالمتوكل يعبر بقوله هذا عن مبدأ سار الخلفاء المسلمين على تحقيقه ، يقضي بتكثير العمران ، باعتبار أن هذا الأمر من أركان الملك ، ((فالدولة والملك للعمران بمنزلة الصورة للمادة ... فالدولة دون العمران لا تتصور ، والعمران دونها متعذر .. وحينئذ فاختلال أحدهما مستلزم لاختلال الآخر كما أن عدمه مؤثر في عدمه))(٦٣) . وللماوردي كلام مثل هذا (٦٤). ويقدم قدامة بن جعفر تفسيراً آخر لنشأة المدن في إطار فكري واسع يرى بأن حاجات الإنسان المتعددة في حياته ، واختلاف طبقات المجتمع تجعله يجنح إلى تكوين مجتمع المدينة ، بغض النظر عن حجم هذا المجتمع(٦٥) ، أي أن الأمر يتعلق بديمومة سنن الله (عز وجل) في هذه الأرض وذلك بوجود الإنسان لإعمار الأرض . وحتى وجود السياسة الحاكمة أو الملك فإنه أمر قد حتمه واقع المدينة ، ووجوب وجود أئمة يقودون رعاياهم لكي يستقيم أمر المجتمع داخل المدينة كما يرى قدامه

وواكب الجغرافيون والبلدانيون تطور هذا الفكر عندما تناولوا بالتقسيم مراكز الاستيطان البشري ، وميزوا بذلك المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان، ووضعوا المعايير المقيدة لهذا المصطلح ، فرأينا التمييز بين المدينة ، والقصبة ، والناحية ، والقرية ، والكورة ، والقصبة ، وغيرها ، والدلالة الحضارية لكل واحد من هذه المصطلحات . كما ميزوا بين المدن نفسها وفق معايير حضارية محددة من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية والاستحكامية ، وغيرها من العناصر التي وردت آنفا والمتعلقة بعناصر المدينة الإسلامية .

إن ما يميز الفكر العمراني الإسلامي ؛ تنوع مصادره ، ولولاها لما كان هناك فكر معماري إسلامي ، أي أن هناك مواكبة ومسايرة من قبل العلماء المسلمين مع الوضع القائم خلال مراحل التمدن الإسلامي التاريخية ، وما فقه النوازل ، وكتب الحسبة إلا مصداقاً لذلك ، وتضمين العلماء في بعض كتبهم أبواباً خاصة بالعمران، من الناحية الفكرية والتنظيرية ، بل كانت تظهر كتب من وقت لآخر حرص أصحابها على تثقيف المجتمع وتهذيب سلوكه جنباً إلى جنب مع حركة التطور العمراني ؛ الأمر الذي أدى إلى رقي أفراد المجتمع ، وظهور فكر ساعد كثيراً على ازدهار العمران في المدن الإسلامية .

اختيار موقع المدينة :

أما عن اختيار مواقع المدن الإسلامية ؛ فإننا نجد عند العلماء المسلمين مفاهيم وأسس ينبغي الأخذ بها عند اختيار مواقع المدن . فقد حدد ابن الربيع شروطاً ستة يتوجب تحقيقها في مواقع المدن ، وهي : ((سعة المياه المستعذبة ، وإمكان الميرة المستمدة ، واعتدال المكان ، وجودة الهواء ، والقرب من المرعى والاحتطاب ، وتحصين منازلها من الأعداء والذعار ، وأن يحيط بها سور يعين أهلها))(٦٦) . ويؤطر ابن خلدون(٦٧) ذلك كله في أمرين رئيسيين هما :

١- دفع المضار .

٢- جلب المصالح .

وصنَّف ابن الأزرق[٦٨] المضار إلى : أرضية ، وسماوية . أما جلب المنافع فيكون بمراعاة أمور منها : توفر الماء ، وطيب المراعي للسائمة ، وقرب المزارع والغابات ، والقرب من البحر .

وهذا التوافق في الآراء الثلاثة يعني بلا شك أنه هناك معايير مشتركة بين علماء المسلمين ارتقت فيما بينها لأن تصبح فكراً واضحاً، أي أن هناك ثمة ما يحكم الآراء في هذا الأمر، مما يدل على أن الأمر لم يكن اعتباطاً في منطلقه وطرحه.

ورأينا في المبحث الثاني، نصوصاً عن حسن اختيار مواقع المدن الإسلامية، ومميزات تلك المواقع، وأن هناك مجموعة من الاعتبارات عندما اختيرت، سواء كان هذا الأمر يتعلق باختيار المدن الداخلية أو الساحلية. وفيما يخص اختيار مواقع المدن الساحلية نقرأ لابن خلدون كلاماً بهذا الخصوص يدل دلالة واضحة على عمق الفكر لديه، وبالتالي لدى علماء المسلمين في هذا الأمر. كما تفرد بالتشديد على وجوب مراعاة أكبر كمية من الثروات الطبيعية عند اختيار الموقع[٦٩].

تخطيط المدن :

اما ما يتعلق بتخطيط المدن الإسلامية ، فقد سار منهج تخطيط المدن الإسلامية ومراحل إنشاء تكويناها المعمارية في توافق تام مع أحكام البناء التي أقرها فقهاء المسلمين ، استناداً إلى الكتاب والسنة .

وتذخر كتب الفقه بهذه الأحكام، الأمر الذي جعل من هذه المصادر رافداً مهماً من روافد التراث الإسلامي الذي يؤسس لضوابط العمران السلوكية .

وتدخل أحكام البنيان في جميع أبواب الفقه تقريباً، أو كتب الفتاوي والنوازل[٧٠]، وأبواب تتعلق بإحياء الموات واستخراج المياه . كما اعتبرت كتب الحسبة ، أحد المصادر المهمة لاستقراء أحكام النبيان من خلال المهام المنوطة بالمحتسب والتي من ضمنها مراقبة هذا الأمر. ونجد أن كتب الحسبة لم تخلو من باب يختص بمراقبة الطرقات أو الحرفيين من بنائين ونجارين، وغيرهم، أو مراقبة الدور وملائمتها لشروط البناء [٧١].

كما أن هناك العديد من الكتب والرسائل الصغيرة التي اختصت بمسائل البنيان وأفردهّا بالبحث، ككتاب "الجدار" لعيسى بن موسى التطيلي، وكتاب "الإعلان بأحكام البنيان" لإبن الرامي .

وتزودنا هذه المصادر وغيرها بتفصيلات دقيقة تتعلق بتخطيط المدن ، وإنشاء الوحدات المعمارية ومواصفاهّا . كما تعرضت لصلاحية البناء وشروطه وأحكامه، وكل ما يؤدي إلى متانة البناء وصلابته . ولم تغفل هذه المصادر القواعد والأحكام التي تكفل عدم الإضرار بالآخرين ، كعدم ارتفاع البناء على الجيران ، وعدم فتح نوافذ تطل على حريمهم ، وحكم إخراج الميازيب والشرفات على الطريق ، وكذلك القواعد المنظمة لحقوق الشوارع من حيث المرور ، والبيع فيها، ونحو ذلك . فنلاحظ أن الأزقة التي بعرض (سبعة أذرع) تجعل أبواب المنازل مواجهة بعضها لبعض ، مما يعزز حق الجار ويقوي رابطة التآلف التي عضدها الإسلام . كما يوفر هذا النوع من التخطيط للأزقة ظلاً وارفاً يعدل من حر القيظ.

ولقد وضع علماء المسلمين أسس تخطيط المدن ؛ فنجد ابن الربيع يحدد شروطاً ثمانية يجب أن يراعيها القائد أو الحاكم المسلم عند تخطيط موضع المدينة ، وهي : ((أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب أهلها ، ويسهل تناوله من غير عسف ، وأن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق ، وأن يبني جامعاً للصلاة في وسطها ليتعرف على جميع أهلها ، وأن يقدر أسواقها بحسب كفايتها

لينال سكانها حوائجهم عن قرب ، وأن يميز بين قبائل ساكنيها بألا يجمع أضداداً مختلفة متباينة ، وأن أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها ويجعل خواصه محيطين به من سائر جهاته ، وان يحيطها بسور مخافة اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة، وأن ينقل إليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا ويستغنوا بهم عن الخروج إلى غيرها))(٧٢) .

والناظر إلى تاريخ المدن الإسلامية ومراحل تخطيطها يلحظ بوضوح أنها لم تخرج عمَّا ذكره ابن الربيع في كثير منها . كما أن هذه الشروط تكشف عن رؤية تخطيطية متقدمة للمدينة الإسلامية أخذت في الحسبان الجوانب السياسية والاجتماعية والوظيفية لمجتمع المدينة الإسلامية ، مما يؤكد أصالتها ، وعمق الفكر الإسلامي ورؤيته الثاقبة في تخطيط المدن ، وهو فكر تبلور ونضج مع تقدم العصر، ومستفيداً في ذلك من التجربة وتراكم الخبرات مع مرور الزمن .

وعندما نستقرئ مصنف الشيزري ((نهاية الرتبة في طلب الحسبة))(٧٣) فإننا نعثر على نصوص مفصلة تتناول التخطيط الداخلي لطرقات ودروب المحلات، وكيفية مراعاة حقوق الناس. كما يوضح المعايير التي يجب مراعاتها عند اختطاط الأسواق من حيث الارتفاع والاتساع. كما نجد شروطاً وضعها الشيزري الواجب توفرها في الباعة في السواق كل حسب صنعته ، وكذلك الحرفيين .

ولإكساب أحكام البناء وتنظيماته صفة الأهمية والرسمية ، فقد أكدت المصادر الفقهية على خضوعه لأحكام السياسة الشرعية . فلولي الأمر أن يمنع ويبيح البناء بحسب المصلحة العامة . وفي ذلك دلالة على أن المدينة الإسلامية وتطور عمارتها ومباشرة مرافقها كان من مسؤولية إدارتها المحلية بما تمتلكه من سلطات قضائية وتنفيذية ، سيرت عمران المدينة وفق أحكام الشريعة الإسلامية التي واكبت تطور الحضارة الإسلامية .

من خلال ما سبق ، نلمس بشكل واضح أن للعمارة الإسلامية فكر عميق وواضح اشترك في تشكيله جميع الأطراف ذات العلاقة بحياة الإنسان من السلطة

الحاكمة إلى علماء الأمة وفق تعالم الدين الإسلامي ، صاحب ذلك انتشار الوعي العمراني لدى المجتمع المسلم ، وأصبح لهذا المصطلح مضامين رفيعة الأهداف مع بعد النظر . فهذا يحي بن خالد البرمكي[٧٤] يقول لابنه جعفر حين اختط داراً ليبنيها : ((هي قميصك ، فإن شئت فوسعه ، وإن شئت فضيقه))[٧٥] . وفي ذلك إدراك للعلاقة بين حاجة الإنسان للمترل وحريته وبين الوظيفة التي بني من أجلها، فهذا الأمير الموفق العباسي (ت٢٧٨هـ/٨٩١م) [٧٦] يقصد مترل عالم الحديث أبي داود السجستاني[٧٧] ، ويقدم له عرضاً مفاده : ((تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطناً ، ليرحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض فتَعْمُر بك ، فإنها قد خربت وانقطع الناس لما جرى من محنة الزنج)) [٧٨]. وهذا لعمري فكر عميق لما يعنيه مصطلح "العمران" في العقلية الإسلامية ونموذجاً من نماذج سوسيولوجيا العلم الرائعة ، سواء على مستوى السياسة الحاكمة أو على مستوى أفراد الشعب .

المبحث الرابع: تطبيق عناصر المدينة (تخطيط الكوفة نموذجاً)

لقد هيمنت فكرة الهجرة على فتح العراق بصورة أوضح مما كان عليه الأمر بالشام . فقد كان المسلمون يهدفون إلى القضاء على الدولة الفارسية بصورة محسوسة أكثر مما كانوا يهدفون إلى تحطيم الإمبراطورية الفارسية في العراق فقط . وكان الاستقرار بالكوفة الغاية والهدف للعمل العسكري .

أولاً : اختيار الموقع

ففي أواخر (١٧هـ /٦٣٨م) جاءت أوامر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إلى القائد سعد بن أبي وقاص ﷺ على تأسيس الكوفة [١]كإحدى الضرورات الحربية التي فرضتها دواعي الفتح الإسلامي لبلاد فارس . وجاء اختيار موضع الكوفة وفقاً للتوجيهات العُمرية لسعد في هذا الشأن ، فقد أمره بأن ((يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيرواناً ، وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً))[٧٩] . وجاء في رواية أخرى أنه قال له : ((أن العرب بمترلة الإبل ، لا يصلحها إلا ما يصلح

الإبل؛ فارتد لهم موضعاً عدناً ، ولا تجعل بيني وبينهم بحراً))[٨٠] .وهذا ما حدث بالفعل عندما قام سعد بالبحث عن الموضع المناسب وفق التوجيهات العمرية . سواء من حيث المناخ ، أو الجوانب الاقتصادية ، أو الاجتماعية ، أو الإستراتيجية العسكرية .

فعن مناخها يقول الإصطخري : ((... وهوائها أصح ، ماؤها أعذب من البصرة))[٨١] . ويصور شيخ الربوة تضاريس الكوفة بقوله : ((والكوفة برية بحرية سهلية جبلية))[٨٢] .وهذا المناخ الذي تتميز به الكوفة له علاقة وثيقة ولا شك بموقع الكوفة نفسه ، فهي ((على ذراع من الفرات خارج في جنوبي الفرات وغربيها))[٨٣] ، أي أنها على هيئة لسان يخرج من الفرات إلى البر .

أما مصادر المياه ؛ فقد كانت متوفرة إذ كان فيها ((آبار عذيبية حولها نخيل وبساتين، ولهم حياض وقنى))[٨٤]. ويمكن أن نستحضر هنا قول الإصطخري السابق عن عذوبة ماء الكوفة .كما كان موقع الكوفة بعيداً عن ساحل البحر ، الأمر الذي وفر نوعاً من الأمان من اغتيال الأعداء [٨٥].

إن جودة موضع الكوفة الجغرافي ، بما فيه من الهواء النقي ووفرة المياه العذبة يجعل من هذا الموضع ذا قيمة استثنائية بالنسبة للاستيطان البشري ، كونه محاطاً من كل جانب بطبيعة جغرافية شديدة التنوع : الصحراء ، والنهر، والبطائح ، دون التأثر بمساوئها . فأنشأت هذه الصلة الممتازة بين الصحراء وبين الأرض الزراعية المائية نوعاً من التكامل العميق لموضع الكوفة .

إن ثمة أمر يتطلب الوقوف عنده يتعلق بتأسيس الكوفة : هل كانت وصية عمر لسعد لها علاقة بتكيف مواشيهم ؟ في الحقيقة لا يستبعد أنه أثر في قرار الانتقال إلى منطقة تشرف على البادية لأسباب نفسية أكثر منها اقتصادية ، لقد كان التكيف مع الموقع أكثرها بداهة ، ذلك أن العرب لا يتكيفون مع مكان إلا إذا تكيفت معه مواشيهم . فكان موضع الكوفة موقعاً بين البر – عالم الصحراء – وبين الريف – عالم البيئة الزراعية الخاضعة للبحر [٨٦].

وهذه النظرة تجعل التفكير يذهب إلى احتمال أن عمر لم يكن يرغب في إنشاء مدينة بمفهومها الحضاري ، على الأقل في بداية الأمر ، بل أن الهم كان منصباً في تلك المرحلة على إقامة معسكر مفتوح ، وهو ما جاء في توصية عمر لسعد عندما قال له : ((العسكر أجدُّ لحربكم وأذكى لكم))(٨٧) . ولذا ، نرى سعداً يصرف نظره عن حواضر قائمة : كالأنبار ، والحيرة ، والمدائن ، ومع هذا فلابد أن قربها قد أسهم في الاستقرار بالكوفة وعلى الرغم من ذلك فقد كان للعرب معرفة بهذه المنطقة فضلاً عن أنها وافقت التصور الذي أراده الخليفة عمر (رضي الله عنه) وغرضه . لقد طرق العرب باب العراق من هذا المكان ، كما كانت منطقة مأنوسة لديهم نظراً لما شنوه من غارات على الحيرة وضواحيها في البداية ، ثم لأن معركة ((البويب)) دارت فيها ، وقريباً منها دارت موقعة القادسية(٨٨) .

والخلاصة، أن أيسر خط للمرور بين بلاد العرب والعراق كان يمر من الكوفة . كما كانت على اتصال بري مباشر بمركز الخلافة الإسلامية في المدينة دون أن تكون هناك موانع مائية ، وهو مايتفق مع الرؤية الإستراتيجية التي كان لدى الفاروق.

ثانياً : التخطيط ومراحله :

مرت الكوفة بالمراحل نفسها التي مرت بها بقية مدن الأنصار في تخطيطها ، تلك المراحل التي حولتها من مجرد معسكرات حربية إلى مدن ذات معايير حضارية واضحة . ويمكن حصرها في خمسة مراحل هي(٨٩) :

المرحلة الأولى : خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) [١٧-٢٣هـ / ٦٣٨-٦٤٣هـ] .

المرحلة الثانية : ولاية زياد بن أبيه [٥٠-٥٣هـ /٦٧٠-٦٧٢م]

المرحلة الثالثة : ولاية خالد القسري [١٠٥-١٢٠هـ / ٧٢٣-٧٣٧م]

المرحلة الرابعة : العصر العباسي الأول [١٣٢-١٩٧هـ /٧٤٩-٨١٣م]

المرحلة الخامسة : العصر العباسي الثاني [١٩٧-٣٣٧هـ /٨١٣-٩٤٥م]

ويمكن القول بان العصر الأول المتفرغ إلى ثلاثة فترات، هي الفترات التي تولى خلالها الخلفاء الثلاثة: عمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم أجمعين)، يبدو بدائياً من الوجهة المعمارية، كما سنرى، لكن ذلك العصر كان القاعدة الأولى. لقد رسم هذا العصر من جميع الوجوه معالم وجود الكوفة، فخطط في خلافة عمر لهندسة المدنية ، واستنبط تنظيمها واستعمل ذلك من عدة وجوه في خلافة عثمان، واضيفت في خلافة علي الصيغة التاريخية ذات الدلالة الرفيعة بالنسبة للقرون التالية (٩٠).

ولأن تلك المرحلة كانت مرحلة التخطيط للكوفة بالمعنى الحضاري، وما زاد فيما بعد كان تغيراً في خامات البناء وأساليبه فقط . لذا سوف يكون الحديث هنا منصباً على تخطيط الكوفة في خلافة عمر .

وجاءت التوجيهات العمرية لسعد عند بداية التخطيط تحدد اتساع شارعها الرئيسي بأربعين ذراعاً، والشوارع الثانوية بثلاثين ذراعاً، والتي تليها بعشرين ذراعاً. وحدد أيضاً اتساع الأزقة والسكك الفرعية بسبعة أذرع. ومنحت القطائع للقبائل وفقاً لما قرره "أهل الرأي" الذين تولوا تحديد مساحات القطائع، وأنشئ المسجد في وسط المدينة وبجواره دار الإمارة. ومن هذه المنطقة التي تمثل مركز المدينة ونواتها، امتدت الشوارع "المناهج" بواقع خمسة شوارع باتجاه الشمال وأربعة باتجاه الجنوب، وثلاثة باتجاه الشرق، ومثلها في اتجاه الغرب. وكانت الشوارع الثانوية تسير موازية للشوارع الرئيسية السابقة، وأحياناً متقابلة معها . ثم يلي ذلك الشوارع الفرعية التي كانت أقل اتساعاً، وظيفتها ربط التكوينات المعمارية بالشوارع الثانوية والرئيسية .

أما الأماكن السكنية للقبائل فقد تم توزيعها في خطط عرفت بالقبائل التي تكوَّن النسيج البشري للمدينة ، ومع ازدياد أعداد القبيلة فإنها كانت تمتد عمرانياً في أكثر من خطة، وإذا ما كانت القبيلة محدودة العدد فإنه كان يشترك معها في الخطة الذين لاينتمون إلى قبيلة محددة والذين كان يطلق عليهم "الأخلاط"[٩١] .

وبالنسبة لتقسيم الخطة بين أفراد القبيلة، فإن ((كل قبيلة كانت تقسم الخطة المخصصة لها)) أي أن الأمر كان متروكاً لحرية تصرف القبيلة؛ وكان لكل قبيلة مقبرتها المعروفة بها [٩٢].

أما سوق المدينة فكانت في منطقة الوسط ، وهو عبارة عن ساحة فضاء لا توجد بها مباني أو سقف غير تلك الظلل التي عملت لتظل البائعين في أماكنهم التي اختاروها [٩٣].

ومما سبق يتضح أن تخطيط الكوفة سار على المنهج نفسه الذي وضع في المدينة ثم في البصرة [٩٤].

بناء الكوفة :

لقد ارتبط بناء الكوفة ارتباطاً وثيقاً بالظروف التي أنشئت من أجلها من جهة وبالظروف الآنية التي كانت تسيطر على حياة المسلمين في بداية استقرارهم بالكوفة. فعندما استقر المسلمون في الكوفة ، وجد سعد بن أبي وقاص أن حياة الخيام التي يحيبونها في معسكرهم لا تلائم المجتمع الجديد الذي ألفوه، ففكروا في بناء بيوتهم من القصب والبردي كي تكون أكثر ملائمة وأكثر واقعية من حياة الخيام؛ فكتب سعد إلى عمر يستأذنه في بناء بيوت المعسكر من القصب، فأجابه: ((العسكر أجدُّ لحربكم، وأذكى لكم، وما أحب أن أخالفكم فابتنوا القصب))[٩٥].

ومن هذا يبدو أن عمر لم يكن راغباً كل الرغبة في سكنى المسلمين في المدن واتخاذهم بيوتاً ، لأن هذا يبعدهم عن الهدف من استقرارهم المؤقت ، والذي يجعلهم على أهبة الاستعداد للقتال وهو ما خرجوا من أجله [٩٦].

غير أن هذا النمط من البناء لم يثبت أمام الظروف الطبيعية وعاديات الزمن؛ فقد شب حريق في شهر شوال عام (هـ / م) دمَّر (ثمانين عريشاً) ولم يبق فيها قصبة، حدث ذلك بعد عشرة أشهر من استقرار المسلمين ؛ فحتم هذا الوضع على أهل الكوفة أن يطلبوا الإذن من الخليفة في البناء الصلب يعني اللبن . فكان ذلك منطلق التخطيط ، أي ان التخطيط تزامن مع قرار البناء باللبن ، كما جاء في رواية سيف عند الطبري[٩٧].

وجاءت التوجيهات العمرية واضحة فيما يخص مواصفات الوحدات السكنية بألا تزيد عدد الغرف في المنزل عن ثلاثة ، ولا يرتفع البناء أكثر من طابق. ولا شك أن تحديد ارتفاع المباني بهذه الهيئة يزيد الإحساس باتساع الشوارع بصورة واضحة [٩٨].

ومهما كان الاختلاف بين الروايات عن منشأ فكرة التخطيط للكوفة ، أهو كان متزامناً مع بداية البناء بالقصب أم مع مرحلة البناء باللبن؟ ثم هل تم ذلك البناء في ولاية سعد أم المغيرة بن شعبة ؟ نقول: وعلى الرغم من ذلك، فإن الرغبة الجامحة في تخطيط الكوفة وتمصيرها كان بإشراف سعد، بغض النظر عن الخامة التي استخدمت في البناء. وقام المغيرة، نظراً للظروف الآنية، باستخدام مادة اللبن في البناء [٩٩].

وهكذا أخذت الكوفة ترسم طريقها نحو المدينة خطوة بعد خطوة ، وهي في طريقها تستكمل مقوماتها كحاضرة من الحواضر الإسلامية، أكثر تنظيماً ، كمدينة بمكوناتها ، كما كانت عليه في عهد زياد بن أبيه (٥٠- ٥٣هـ) بتوجيهات الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وذلك وفق تخطيط مدينة الرسول ﷺ .

الخـــاتمـــة

كان لظهور الإسلام وحضارته أثر بالغ وكبير في مسيرة النهضة العمرانية استمرت قروناً طويلة ، وبرزت بشكل واضح ما بين القرنين ٢-٥هـ / ٨-١١م . وأخذ هذا الأثر في واقعه بالنسبة للمدن ، وهي المحيط الكامل للعمران ، صورتين عامتين ، هما :

١- إنشاء مدن جديدة في بقاع العالم التي دخلت في حظيرة الإسلام .

٢- إعادة إعمار المدن القديمة ، والتي نشأت قبل ظهور الإسلام في الحضارات السابقة ، وبث الحياة فيها من جديد وفق منظور إسلامي خاص ، بلغ بها الاتساع والدور الحيوي أبعاداً لم تعهدها حتى في ظل تلك الحضارات التي نشأت في كنفها.

لقد كانت الرؤية الإسلامية للعمران ذات صبغة خاصة تتلائم مع المقومات العمرانية التي كانت متوفرة في البيئات التي خضعت لدولة الإسلام .

كما نلاحظ أن الحركة العمرانية وكثافتها تتناقص من الشرق إلى الغرب بسبب تناقص النقد والأيدي العاملة وركود التجارة . وعندما خضعت تلك البقاع للدولة الإسلامية أصبحت هناك ما يسمى سوق مشتركة شاسعة تمتد من أواسط آسيا شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، قد غُذت هذه البيئات بمبادئ العمران الإسلامية العميقة ، فتطورت تلك البيئات بدرجة متوافقة مع وظيفتها .

ونخلص من ذلك إلى أن هناك علاقة طردية بين الاقتصاد والعمران ، وذلك أن المقومات الزراعية والتبادل التجاري ، يؤدي إلى تكاثر الناس في المكان ، مما يؤدي بدوره إلى ازدهار المدن ووجود عناصرها بشكل جلي يصح أن يطلق عليها مدينة ، كما حدث في بغداد وبخارى والقيروان وقرطبة .

الحواشي والتعليقات:

---

(١) يقصد مدينة بغداد

(٢) لسان العرب ، (١٣/٤٠٢)

(٣) مختار الصحاح ، ص٦١٩

(٤) القاموس المحيط ، ص١٥٩٢

(٥) المعجم الوسيط ، ص٨٩٦

(٦) لسان العرب (٥/١٧٥-١٧٦)

(٧) مختار الصحاح ، ص٥٥٠

(٨) القاموس المحيط ، ص٦١٢

(٩) ص٨٨

(١٠) القاموس المحيط ، ص٨٤٠

(١١) مختار الصحاح ، ص٥١٢

(١٢) المصدر السابق ، ص٢١٢

(١٣) المعرّب ، ص١٥٨

(١٤) معجم البلدان ، (١/٢٥)

(١٥) أحسن التقاسيم ، ص٥٤

(١٦) المصدر السابق ، ص٢٢

(١٧) معجم البلدان ، (١/٢٥)

(١٨) المصدر السابق ، (١/٢٥)

(١٩) المصدر السابق ، (١/٢٥)

(٢٠) المصدر السابق ، (١/٢٥)

(٢١) مختار الصحاح ، ص٢١٢

(٢٢) معجم البلدان ، (١/٢٥)

(٢٣) أحسن التقاسيم ، ص٥٤

(٢٤) المصدر السابق ، ص٥٤

(٢٥) البلدان ، ص٢

(٢٦) المسالك والممالك ، ص١٨

(٢٧) مختصر كتاب البلدان ، ص١٢٦ ، ١٢٨ . وأيضاً : كتاب البلدان ، ص٣٧٧ ، ٣٨٢

(٢٨) أنظر على سبيل المثال : نزهة المشتاق ، (١/١٣-١٤)

(٢٩) حسن الباشا : المدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص٥٣

(٣٠) مصطفى الموسوي : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية والإسلامية ، ص١٥-١٧

(٣١) أحسن التقاسيم ، ص١٠٧

(٣٢) مسالك الممالك ، ص٨٠-٨١

(٣٣) أحسن التقاسيم ، ص١٠٦

(٣٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٢٨٨ . بحشل : تاريخ واسط ، ص٣٨-٣٩

(٣٥) معجم البلدان ، (٤٥٧/١) .

(٣٦) البلدان ، ص١٦٢

(٣٧) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٣٨٥

(٣٨) الأعلاق النفسية ، ص١٠٩-١١٢

(٣٩) ابن الفقيه : البلدان ، ص١٣٨-١٣٩

(٣٩) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١١٦

(٤٠) الأعلاق النفسية ، ص١٠٩

(٤١) مسالك الممالك ، ص٧٣

(٤٢) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٤٢٨

(٤٣) معجم البلدان ، (٣٥٣/١)

(٤٤) أحسن التقاسيم ، ص٢٢٢

(٤٥) الأعلاق النفسية ، ص١٠٨

(٤٦) يقصد بها الجوامع التي تقام فيها صلاة الجمعة .

(٤٦) نخبة الدهر ، ص٣٠٤

(٤٧) البلدان ، ص٢٥٠

(٤٨) معجم البلدان ، (٤٦٢/١) .

(٤٩) البلدان ، ص٤٣٦

(٥٠) آثار البلدان ، ص٥١٠

(٥١) مسالك الممالك ، ص٧٣

(٥٢) أنظر على سبيل المثال كتاب "التبصير بالتجارة" للجاحظ ، تحقيق / حسن عبد الوهاب . دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٦٦ ، وهو كتاب جميل في بابه يستعرض فيه الحركة التجارية بين مختلف البلدان ، وخاصة السلع التي كانت تأتي إلى مدن العراق ، ومصادرها .

(٥٣) البلدان ، ص٢٣٤

(٥٤) أحسن التقاسيم ، ص١٨٦

(٥٥) سورة الذاريات ، آية ٥٦

(٥٦) المقدمة ، ص٢٩٣

(٥٧) محمد عثمان : المدينة الإسلامية ، ص٢٩

(٥٨) لسان العرب ، (١٣/٤٠٢) .

(٥٩) القاموس المحيط ، ص١٥٩٢

(٦٠) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٧-٨

(٦١) الزيلعي : نصب الراية لأحاديث الهداية ، (٢/١٩٥) .

(٦٢) اليعقوبي : البلدان ، ص٣٣٦-٣٣٧

(٦٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص٢٧٠-٢٧١

(٦٤) الأحكام السلطانية ، ص٥

(٦٥) الخراج وصناعة الكتابة ، ص٤٣٢-٤٣٣

(٦٦) سلوك المالك في تدبير الممالك ، ص١١٨ ، نقلاً عن : محمد عثمان ، المدينة الإسلامية ، ص٢٩-٣٠

(٦٧) المقدمة ، ص٢٧٣-٢٧٤

(٦٨) بدائع السلك في طبائع الملك، (٢/٧٦٤-٧٦٥) نقلاً عن: محمد عثمان: المدينة الإسلامية، ص٧٦٥-٧٦٦

(٦٩) المقدمة ، ص٢٧٥

(٧٠) محمد عثمان : المدينة الإسلامية ، ص٣٢

(٧١) الشيرزي : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص١١-١٤. ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص١٦٥

(٧٢) سلوك المالك في تدبير الممالك ، ص١٢١-١٢٢ ، نقلاً عن : محمد عثمان : المدينة الإسلامية ، ص٣٠

(٧٣) نهاية الرتبة في طلب الحسب ، ص١١، ١٤ ، ٢٢

(٧٤) وزير هارون الرشيد .

(٧٥) الدنيوري ، عيون الأخبار ، (٣/٣١١) .

(٧٦) طبقات الحنابلة ، (١/١٦٢) .

(٧٧) طبقات الحنابلة ، (١/١٦٢) .

(٧٨) صاحب السنن .

(٧٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، (٤/٤١-٤٢)

(٨٠) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٢٧٤

(٨١) المصدر السابق ، ص٢٧٥

(٨٢) مسالك الممالك ، ص٨٢ . ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٢٣٩

(٨٣) نخبة الدهر ، ص٢٤٩

(٨٤) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٣٠١

(٨٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٠٥

(٨٦) محمد عثمان : المدينة الإسلامية ، ص١٠٠

(٨٧) هشام جعيط ، الكوفة ، ص٦٨-٦٩

(٨٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، (٤/٤٢)

(٨٩) هشام جعيط ، الكوفة ، ص٧٠

(٩٠) المرجع السابق ، ص٨٢

(٩١)المرجع السابق ، ص٨٣

(٩٢)الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، (٤/٤٤-٤٥)

(٩٣)ليعقوبي : البلدان ، ص٣١٠

(٩٤) المصدر السابق ، ص ٣١١

(٩٥) محمد عثمان : المدينة الإسلامية ، ص٦٩

(٩٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، (٤/٤٣) .

(٩٧) مصطفى الموسوي : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية والإسلامية ، ص٨٨

(٩٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، (٤/٤٣-٤٤) .

(٩٩) المصدر السابق، (٤/٤٤)

(٩٩) هشام جعيط : الكوفة ، ص٩٠-٩١